الأهرام

المصدر: الحياه

التاريخ : ٣١ اغسطس ٢٠٠٢

قضايا حساسة في مفاوضات السلام السودانية (الحلقة السادسة)

المعاطف افريقية والخناجر غربية والمدافعون عن العروبة أيتام على مائدة لئام

نزار ضو النعيم *

■ دفع السودانيون ثمناً باهظاً لتهربهم الطويل من مواجهة الأزمة في هويتهم وتحزبهم جماعات تدافع كل واحدة عن مكون وتنفي الآخر. وانفقوا زمناً آخر في التدافع حرباً لفرض إرادة على أخرى، واستنفدوا في ذلك خزينتهم ومواردهم وعبارات التعيير والتخوين.

لم تفد المداورة وتسمية الأشياء بغير مسمياتها، ولم تبق في القاموس مفردة لم تستخدم في التعمية والاحتيال. ودار الزمن دورته ووجدوا انفسهم امام الاختبار الأخير، ووجدوا بلادهم على أعتاب مرحلة فاصلة في تاريخها.

لا عيب في لجوء بعض أهل جنوب السودان الى عمقه الثقافي العرقي في الغرب وافريقيا طلباً للدعم والسند، فالعلاقة قديمة واصيلة ومن المسلّمات. ولا عيب في لجوء عرب السودان ومسلميه الى عمقهم الثقافي بين العرب والمسلمين. ولن يكون غريباً إذا نهض العمق لاسناد الامتداد، وشد المركز على سواعد الأطراف. العروبة في السودان اصيلة، والافريقية اصيلة، والغرب مرتبط ببعض السودانيين بوشيجة الدين.

والأيادي الخارجية في السودان قديمة وراسخة، ولا معنى للبحث عن بادئ لأن أهم مكونات الشخصية السودانية واردة اليه مع بعض التعديلات. وقد يقول الافريقي المسيحي السوداني لأخيه العربي المسلم أن ذلك جاء مع الفتوحات الاسلامية والنزوحات العربية التي سبقتها، ويكون محقاً. وقد يقول عربي السودان لافريقيه محقاً ان التدخلات التي تؤثر في واقع اليوم بدات مع الاستعمار البريطاني الذي تدثر بدثار مسيحي كثيف، فعزل الجنوب عن الشمال وحظر الهجرات والتلاقح، حتى بلغ به الأمر منع لبس الجلباب الشمالي في الجنوب. وسيقول ان الاستعمار اغلق الباب امام التعليم الرسمي في الجنوب وفتحه للمبشرين من كل نحلة فانشاوا المدارس. وبلغ الشطط بالمبشرين أنهم كانوا يشترطون على الجنوبي أن يغير اسمه الى اسم مسيحي قبل أن يلج باب المدرسة. ولا مدرسة غير مدرسة المبشر، والجنوبي انسان راغب في التعلم شانه في ذلك شان الجميع.

هذا هو عمق التدخلات، لذلك فإن نفيها مكابرة ومدافعتها خيال. الأيادي الخارجية في الدول سياسية أحياناً واقتصادية المنشأ، لكنها في السودان ايضاً ثقافية وعرقية ومن صلب التكوين.

السودنة والعروبة

قال كثيرون بسودانية السودان وتحدثوا عن ثقافة وشخصية وهوية سودانية. ولكن اذا طلب الى دعاة السودنة أن يصفوا كل سياستهم الخارجية المفضلة مثلا يتحدثون حديثاً جميلاً عن سياسة منفتحة على افريقيا ومناصرة لقضاياها، ومنفتحة على العرب ومحاربة الى جانبهم ومنفتحة على الغرب ومرضية له. ومن شواهدهم أن ازهى فترات سياسة السودان الخارجية كانت فترات مراضية للجميع واشبه بالماء بلا طعم ولا لون ولا رائحة ولا نكهة. واظنهم محقون. السودان جسر العرب والمسلمين الى افريقيا، وجسر الأفارقة الى العرب ولا يشبهه في ذلك قطر من اقطار العرب الافريقية الباقية. لكنه ايضاً حاجز الغرب بين العرب المسلمين وافريقيا، فكيف يراضي الجميع؟

والعروبة في السودان ممتدة وتفاخر بانها لم تدخل غازية. حتى ان افراد قبائل الجنوب الكثيرة ذات اللغات غير المكتوبة لا يتخاطبون إلا بلغة مشتركة واحدة هي هجين عربي - افريقي اسمه «عربي جوبا». هذه لغة الغالبية غير المتعلمة، اما الاقلية الضئيلة المتعلمة فتتحادث بالانكليزية. والافريقية في السودان ممتدة وعميقة حتى انك لن تجد سودانياً لا تسري في عروقه دماء افريقية، سوى قلة قليلة من أحفاد المهاجرين الذين جلبهم الاستعمار التركي ثم البريطاني، وهم الى فناء.

كثير من الشعوب المستقرة اليوم حسمت تنافس مكوناتها وخلدت الى هوية موحدة بالقوة فرسخت. لكن الحال اليوم غير

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

طبيبة من إحدى منظمات الاغاثة الغربية في مخيم للاجئين في السودان.

حال الأمس، زمن الغزوات والحملات. لم يبق أمام السودانيين غير التعايش مع واقعهم، والنبش بين عوامل تعددهم بحثاً عن صلة ورابط.

ويقترح الكاتب السوداني فرانسيس دينغ في مقدمة روايته «بذرة الخلاص» البحث في «أسس مقبولة لجميع الأطراف، وان نوضح بجلاء من نحن لا ما ينبغي أو نتمنى». ويرى أن «ما يفرق ثقافياً وعرقياً في الغالب اسطورة نمت وتطورت نتيجة تاريخ طويل ومتناقض من التفرقة. مثل هذه الأسطورة لا يساعد في بناء الأمة الواحدة، لأن لا مناص للسودانيين جميعاً من أن يتعايشوا أمة واحدة».

المبادرات

المبادرات لحل مشكلة السودان افريقية ذات رداء غربي وعربية، كما في مبادرة دول «ايغاد» وهي اثيوبيا وكينيا واوغندا واريتريا، ويدعمها «شركاء ايغاد» وهم أميركا وبريطانيا وكندا والنروج وايطاليا وسويسرا واحياناً هولندا، وكما في المبادرة المصرية – الليبية. بالطبع «شركاء ايغاد» هم شركاء في قضية جنوب السودان لكنهم ليسوا شركاء ذوي جدوى في قضايا الهيئة الحكومية للتنمية ومكافحة التصحر في شرق افريقيا، وهو اسمها الأصلي. أرادوا معطفاً افريقياً مناسباً للتدخل في قضية جنوب السودان ووجدوه. واستلوا الخناجر.

ورجح الشركاء كفة المبادرة الافريقية، وقعد العجز بالمبادرة العربية فولدت معادلة مختلة في مشاكوس ستنتج منها ظلامات جديدة، وتنذر بصراع جديد وان طال الزمن.

تبسيط مخل ان نقول ان العرب قصّروا فوجدوا أنفسهم خارج الركب، لأن لهم أيادي بيضاء كثيرة على السودان خصوصاً في السبعينات والثمانينات. ويشمل ذلك مساعدات كثيرة للجنوب من الكويت والسعودية والامارات، بعد اتفاق السلام الأول عام ١٩٧٢. ولا يزال السودانيون، خصوصاً الجنوبيين، يذكرون

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

عروبة السودان لا تتناقض مع أفريقيته.

بإعزاز السفير الكويتي السابق عبدالله السريع الذي قسم وقته بين الخرطوم وجوبا عاصمة الجنوب التي انشأ فيها مؤسسات. ويحفظ التاريخ ان سكان مدينة جوبا خرجوا متظاهرين تأييداً للكويت بعد غزوها، فيما خرجت تظاهرة في الخرطوم مدافعة عن العراق في وجه التحالف الدولي. وللعراق اياد في رد التمرد لكن هذه حكاية أخرى. كل هذا لا يعفي العرب، وانما يحضهم على الالتحاق بعملية السلام السودانية، لانها تبحث في صراع مكونات وهوية وحتميات تاريخية، وهم لهم في ذلك ضلع شاء الباقون أم أبوا.

ولن يعفي العرب القول أن عروبة السودان التي تستنجد بهم، وهو ثاني بلدان العرب لجهة عدد السكان، مقسمة ومضطربة وضعيفة على شاكلة أحزابها. هي بخلاف ذلك تماماً متينة ومخلصة لعروبتها وغالبية طاغية. كما لن يعفي بعض العرب قولهم انهم لا يستطيعون الاسناد لأن حكومة الخرطوم ليست معهم على وئام. يمكننا تجاوز ذلك إذا انتبهنا أننا اليوم نبحث في النتائج وليس المقدمات.

والحديث المصري عن وحدة السودان فيه تعنت واستعلاء يستهجنه كثيرون، والتلميحات المستمرة الى مسألة المياه ليست مفهومة ولا مهضومة لدى السودانيين. وقول الزعيم الليبي معمر القذافي «لن نكون سودانيين أكثر من السودانيين» أصاب كبد الحقيقة حين لم يقصد، فهو قالها يائساً ومحبطاً، لكنها تصلح أساساً لدعم السودانيين في ما يريدون، وأهل مكة أدرى بشعابها.

الوصاية لن تفيد إذا كان المستفيد ناضجاً ومدركاً، وإذا كان العرب واعين بمشكلة الهوية في السودان فهي بالنسبة الى السوداني أزمة يومية ترافقه الى حقله وسريره.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

أين الدور العربي؟

هناك مجال ومتسع للدور العربي إذ فاتنه العربة الأولى وليس القطار كله. القطار لا يزال في مشاكوس نقطة البدء والجميع يتلفتون ولا يرون حولهم عربياً واحداً في المدينة الكينية التي حل بها الأميركي والكندي والبريطاني والإيطالي والنروجي.

والحضور العربي ليس خصماً على أحد لكنه اضافة وإثراء ودعم لبعض المكونات التي تخضع للفحص المجهري. وهو سيجد ترحيباً من الطرف السوداني الشمالي وقبولاً من الجنوبي وسكوتاً جماعياً من الباقين. وسيدافع غالبية اهل السودان العرب والمسلمين عن هويتهم وسيحفظونها، لكنهم في حاجة الى الدعم بعدما تكاثرت السهام. وبعد الاتفاق هناك رقابة دولية يحتاج فيها كل طرف الى صديق، وهناك دفاع مستميت عن وحدة السودان يحتاج الى سند من مقتنع. الكل يتحدثون عن الوحدة، لكن حديث الوسطاء النافذين يبدو حيادياً تماماً وخالياً من أي حماسة. هذا من نوع الدعوات التي تحتاج الى قناعة وحماسة. والدفاع العربي عن الوحدة ممكن بالدعم المباشر للجنوب والانفتاح المباشر عليه. القول اليوم ان يركب العرب موجة السلام فهو حاجة كل السودانيين وموضة الزمن المعاصر، فيتيحوا لأنفسهم ولعروبة السودان ووحدته مقعداً في جدلية الهويات.

اللحظة الماثلة تقتضي تجاوز تحفظات كثيرة، وخطأ ان نتجاذب السوداني والسودان فنمزقهما، لأننا حقيقة نتعامل مع جسم واحد لكل طرف منه نصيب. الواجب الماثل دفع الضرر عن مكون في هذا الجسم. ان استمرار غياب الجانب العربي عن صناعة السلام في هذا البلد سيجعل المدافعين عن المكون العربي الاسلامي في المفاوضات كالأيتام على مائدة اللئام.

* من اسرة «الحياة»

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية